

تفسير البحر المحيط

@ 162 @ بذلك على أن أصل الجنس الإنساني كان عابداً □ مفرده بالتوحيد والتقوى ، طائعاً له ، فكذلك ينبغي أن تكون فروعه التي نشأت منه . فنادى تعالى : دعاء عاماً للناس ، وأمرهم بالتقوى التي هي ملك الأمر ، وجعل سبباً للتقوى تذكاره تعالى إياهم بأنه أوجدهم وأنشأهم من نفس واحدة . ومن كان قادراً على مثل هذا الإيجاد الغريب الصنع وإعدام هذه الأشكال والنفع والضر فهو جدير بأن يتقي . ونبه بقوله : من نفس واحدة ، على ما هو مركز في الطباع من ميل بعض الأجناس إلى بعض ، وألف له دون غيره ، ليتألف بذلك عباده على تقواه . والظاهر في الناس : العموم ، لأن الألف واللام فيه تفيده ، وللأمر بالتقوى وللعلة ، إذ ليسا مخصوصين بل هما عامان . وقيل : المراد بالناس أهل مكة ، كان صاحب هذا القول ينظر إلى قوله : { تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ } لأن العرب هم الذين يتساءلون بذلك . يقول : أنشدك با □ وبالرحم . وقيل : المراد المؤمنون نظراً إلى قوله : { إِنْ زَمَّامَاتُ الْمُمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتُ الْكَافِرَاتُ } وقوله : (المسلم أخو المسلم) والأغلب أنه إذا كان الخطاب والنداء بيا أيها الناس وكان للكفرة فقط ، أو لهم مع غيرهم أعقب بدلائل الوحدانية والربوبية ، لأنهم غير عارفين با □ ، فنبهوا على الفكر في ذلك لأن يعرفوا نحو : { الْأَمْوَالُ لِلرَّحْمَةِ وَالنَّفْسُ لِلرَّحْمَةِ وَالْأَنْفُسُ لِلرَّحْمَةِ } { قَدِيرٌ يَا أَيُّهَا النَّاسُ } { وَاللَّامَةُ حَقٌّ } { وَإِذَا كَانَ الْإِنْسَانُ عَدُوًّا لِلْوَالِدَاتِ وَالْوَالِدَاتُ لَكُمْ وَأَنْتُمْ كَارِهَاتُ لَهُمْ } { وَإِذَا كَانَ الْإِنْسَانُ عَدُوًّا لِلْوَالِدَاتِ وَالْوَالِدَاتُ لَكُمْ وَأَنْتُمْ كَارِهَاتُ لَهُمْ } { وَإِذَا كَانَ الْإِنْسَانُ عَدُوًّا لِلْوَالِدَاتِ وَالْوَالِدَاتُ لَكُمْ وَأَنْتُمْ كَارِهَاتُ لَهُمْ } .

قيل : وجعل هذا المطلع مطلعاً السورتين : إحداهما : هذه وهي الرابعة من النصف الأول . والثانية : سورة الحج ، وهي الرابعة من النصف الثاني . وعلل هنا الأمر بالتقوى بما يدل على معرفة المبدأ ، وهناك بما يدل على معرفة المعاد . وبدأ بالمبدأ بأنه الأول ، وهو ظاهر الأمر بالتقوى أنها تقوى عامة فيما يتقي من موجب العقاب ، ولذلك فسر باجتناب ما جاء فيه الوعيد . وقيل : يجوز أن يكون أراد بالتقوى خاصة ، وهو أن يتقوه فيما يتصل بحفظ الحقوق بينهم ، فلا يقطعوا ما يجب عليهم وصله . فقيل : اتقوا ربكم الذي وصل بينكم بأن جعلكم صنواناً مفرعة من أرومة واحدة فيما يجب لبعضكم على بعض ولبعض ، فحافظوا عليه ولا تغفلوا عنه . وهذا المعنى مطابق لمعاني السورة . .

وقال ابن عباس : المراد بالتقوى الطاعة . وقال مقاتل : الخشية . وقيل : اجتناب الكبائر والصغائر . والمراد بقوله : من نفس واحدة آدم . وقرأ الجمهور : واحدة بالتاء على تأنيث لفظ النفس . وقرأ ابن أبي عبله : واحد على مراعاة المعنى ، إذ المراد به آدم

، أو على أن النفس تذكر وتؤنث ، فجاءت قراءته على تكبير النفس . ومعنى الخلق هنا :
الاختراع بطريق التفريع ، والرجوع إلى أصل واحد كما قال الشاعر : % (إلى عرق الثرى
وشجت عروقي % .

وهذا الموت يسلبني شبابي .

.) % .

قال : في ري الظمآن ، ودلت الإضافة على جواز إضافة الشيء إلى الأصل الذي يرجع إليه ،
وأن يعد ذلك الراجع إلى التوالد والتعاقب والتتابع . وعلى أنسنا فيه كما زعم بعض
الدهرية ، وإلا لقال : أخرجكم من نفس واحدة ، فأضاف خلقنا إلى آدم ، وإن لم تكن من نفسه
بل كنا من نطفة واحدة حصلت بمن اتصل به من أولاده ، ولكنه الأصل انتهى . وقال الأصم : لا
يدل العقل على أنَّ الخلق مخلوقين من نفس واحدة ، بل السمع . ولما كان صلى الله عليه
وسلم (أميًّا ما قرأ كتاباً ، كان معنى